مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الوطن

التاريخ: ١٩٧٧/١/٢٣

حنين الى ناصر

فيما يصبح فقراء مصر اكثر فقرًا

● بقلم روبرت فيسك :

أشار احد رجال البوليس السري ، بدون قصد ، الى سبب من الاسباب التي وضعت السادات في ازمة سياسية مفاجئة . كان يقف مع قائد شرطة بلباسه الرسمي يرقب الجمهور اثناء تقدمه بالقرب من الجامعة الامريكية ، ويتحدث في جهاز لاسلكي ، عندما لمحنا على جانب الطريق . مشى الينا وادعى انه موظف في « الاميركان اكسبرس » واقترح ان نغادر المنطقة . وقال وهو يحرك ذراعه اليسرى كما لو انه يقود قطيعا : « من الخطورة ان تبقوا هنا . وهؤلاء الناس غير مهمين. انهم ليسوا مصريين ، انهم مجرد حثالة » .

وسألناه عما اذا كان يظن فعلا انهم أجانب ، فقال : « حسنا ،قد يكونون مصريين ، ولكنهم مع ذلك حثالة » . هذه الملاحظة لم تكن لتفاجىء فقراء القاهرة . ان اي اسئلة للحكومة او البوليس ، او اي بحث حول فقر المدينة المزمن على مائدة الغذاء مع عائلات في احياء هيليوبوليس او الزمالك الهادئة ، تسفر عن نوع واحد من الاجوبة : ان معظم الشعب يؤيد السادات ، وانهم يستفيدون من سياسات مصر الاقتصادية الموالية للغرب ، وان اي عنف يثيره الشيوعيون او الماركسيون او عملاء لقوة اجنبية . وهم يذكرونك ان الحكومة المصرية تدفع اكثر من ٨٠٠مليون جنيه كاعانات للمواد الغذائية،وان نسبة التضخم الحالية التي تقول الحكومة انها ٣٥ بالمائة بدأت فقط منذ اربع سنوات،

وان منح الوقت للاستثمارات الاجنبية لتحقيق الانتاج ، سيؤدي الى رفع معدل الدخل لشعب مصر بملايينه الثمانية والثلاثين ، وقد يبدو ذلك مبررا معقولا ، الى ان يعرض عليك عامل في مصنع او كاتب بدرجة متدنية نظام التذاكر والكروت المعقد والذي لا بد منه للحصول على كميات ضئيلة من الاغذية التي تدعمها الحكومة . فلعائلة من سبعة أنفار على سبيل المثال ، تسمح الحكومة بكيلو غرام من السكر وكيلو غرام من الارز ونصف كيلو غرام من زيت الطبيخ لكل شخص طوال الشهر ، بالاضافة الى بعض الخبز والشاي الرخيص . وأسعار ذلك كالاتي : ٥ قروش للارز ، و ١٤ قرشا للسكر ، و ٨ قروش لزيت الطبخ . ولكن بعد استلام الكمية المسموح بها ، فان المواطن يدفع المبلغ الكامل لهذه المواد لبقية الشهر ، وذلك على النحو التالي : ١٣ قرشا للارز و ٢٢ قرشا للسكر و ٢٠ قرشا للزيت .

والعمال في مصر ، من عادتهم ان يأكلوا خمس مرات في اليوم ؛ ولكنهم يأكلون الخبز لابعاد الجوع . وفي القاهرة ، حيث ٩٠ بالمائة من السكان البالغ عددهم ٨ر٥ مليون نسمة يعيشون في حالة فقر ، وحيث معدل الدخل الشهري ٤٦ جنيها ، وحيث تصبح الحياة يائسة بسبب فوضى المواصلات وقلة المساكن والبطالة والبيروقراطية والقذارة - فان معظم الناس يعانون من البؤس ، ولا تدعمهم سوى روابطهم العائلية، والتأكيد الوطني الخالد بأنهم ابطال « حرب رمضان العظيمة » .ولكن ذكريات الحرب أخذت تتخربش وتذبل كفيلم عبور القناةعام١٩٧٣ الذي ما زال التلفزيون الرسمي يعرضه بانتظام . وفيما تتراجع أيام النصر العسكري ، وتزداد الظروف الجسمانية سوءا ، كذلك فان ثراء الـ ١٠٪ من سكان القاهرة ، كما يبدو ، اخذ يتزايد ويتسع .

والسيارات الفارهة بركابها المعطرين ، وبستاكرها المسدلة ، وزجاجها المضاد للشمس ، تتجه ليلا الى النوادي الليلية في الجيزة ، بينما في الساعة الثامنة من كل مساء تضج قاعة هيلتون النيلرخامية بالاغاني والصنوج والدفوف ، حيث ان كل فتاة من الطبقة المتوسطة في مصر ، تحلم ان تحتفل بزواجها في احتفالات تتسم بالبذخ .

والرئيس السادات نفسه أقام حفلا كبيرا في أروقة سكنه الجمهوري ، عندما تزوجت ابنته من ابن وزير اعماره السابق في اوائل هذا الشهر . وكما تقول المصادر الرسمية فان الراقصة ، ووجود عمر الشريف لم يكلفا شيئا . ولكن خارج معظم الفنادق الفخمة في المدينة، هناك جيش من الفقراء المستعدين لان يتوسلوا او يتزلفوا مقابلقروش أقليلة .

والذي ازعج عمال المصانع وسكان الاحياء الفقيرة والطلاب، لم يكن وجود هذا الترف ، بقدر ما هو التجاهل الظاهر لاولئك الذين يعيشون في فقر . والاغنياء (الذين يشار اليهم باللفظ السيء - المصريون البيض -) هم كما يعتقد الشعب المستفيدون الوحيدون من سياسة السادات الاقتصادية الامريكية التوجيه ، برغم ان شركة واحدة امريكية لم تستقر في القاهرة . وطالما ان الـ ١٠ بالمائة الكبار هم ايضا الادارة - بالتعريف - فان سكان القاهرة يتساءلون عن سبب تركهم المدينة تنهار . فالتزايد السكاني يعالج على انه حقيقة من حقائق الحياة . وهناك أمثلة على ذلك . فقبل بضعة أسابيع ، اوقف الرئيس السادات سيارته الرسمية مرتين في شوارع القاهرة المزدحمة لينقل عددا من المارة . وابرزت صحف القاهرة هذا النبأ في صدر صفحاتها . وهذا الشهر ، كان قطاران مزدحمين بالركاب الى درجة ان الكثيرين منهم كانوا متعلقين بجوانب القطارين اللذين التقيا عند منعطف مما ادى الى مقتل ٩ ركاب واصابة ١٥ اخرين بجروح بليغة . ومع ذلك فان هذه الحادثة لم تحظ بأكثر من بضع فقرات في الصحف.

وهكذا فان أعمال عنف اليومين الماضيين ، كانت متوقعة بقدر ما كانت شرسة . فالفقراء يصبحون اكثر فقرا ، ويتطلعون الى الوراء .. الى ما قبل حرب الشرق الاوسط الاخيرة .. الى أيام عبد الناصر ،عندما كان الاغنياء يعانون لتسكين فقرهم ، وعندما كان ينظر الى الرئيس على انه رجل عادي يتحدث العربية العامية ويقضي على العبودية سواء كانت حقيقية ام في خيال المواطن .

وبرغم ان السادات يحب ان يظهر في « الجلابية » الزي الشعبي العربي ، في قرى المنوفية المحافظة التي ولد فيها ، لا يلقى الجاذب الشعبي الفوري فاجتماعاته التي يدخن فيها « البايب » مع السياسيين الاوروبيين والشيوخ الامريكيين غريبة على الكثيرين من ابناء شعبه .

ويتساءل المشككون ما اذا كانت تجربته الديموقراطية العظيمة - ايجاد حزبين مستقلين في العام الماضي - مجرد محاولة لتأمين متنفس

ضد الثورة ، بدلا من ادخال جو جديد من الديموقراطية الشعبية ٠

وربما يستطيع اقناع السعوديين بدفع ٧٥ بالمائة كل سنة من فاتورته العسكرية التي تقدر بألف مليون جنيه ، كما قال المعلق المعروف توفيق الحكيم في الاهرام اليوم (٢٠ يناير) ٠ وربما يستطيع اقناع الولايات المتحدة بزيادة منحتها الغذائية الحالية (١٤٧ مليون جنيه) ٠ وما زال الجيش يؤيد السادات ، برغم ان احد رجال بوليس قمع الشغب الذي كان يحرس الهيلتون قال انه يتقاضى ١٥ جنيها ٠ وقال احد الطلبة ان رجال البوليس فقراء في زي رسمي ٠ولكن اذا لم يستطع السادات حل مشاكله الداخلية ، فستشهد مصر مزيدا من القلاقل ٠ وهو آمن في سلطته في هذه اللحظة فقط لان الشعب يفضل قائدا ـ ناصر ـ ميتا ٠

● لماذا خرج المصريون الى الشوارع ؟